محاولات فى الأدب القومى

منذ أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن نشأ حوار بين كتابنا ، وفى مقدمتهم كبارهم ، عن هذا العصر الذى نتخطاه منذ الثورة العرابية إلى وقتنا الحاضر : أهو عصر ترجمة أم عصر تأليف . وهو حوار من نوع الحوار الذى نشأ بين القديم والجديد فى الأدب ، يرجع إلى مثل أصله ويقوم على مثل أساسه . وأصل هذا الحوار وأساسه فى الحالين نضال ما بين الحضارتين : حضارة الغرب الحاكمة اليوم ، والحضارة الإسلامية التى حكمت العالم زمناً ثم جاء دورها فى الاستجمام انتظاراً للبعث . فأنصار الجديد لا يرون مفرًّا من أن تغزو حضارة الغرب أمم الشرق ، فهم يريدون أن يهيئوها لهذا الغزو حتى تستقبله مستعدة لتمثل آثاره متهيئة للوقوف أمامه فى شىء من الكرامة والعزة . وأنصار القديم يقدرون ما آل إليه حال الحضارة الإسلامية ، وهم يخشون عليها كل جديد أن يفسدها وأن يقضى عليها . لذلك يريد أنصار القديم هؤلاء أن يظل العلم وأن يظل الأدب والتفكير كما كانت جميعاً فى العصور الماضية . وهم يريدون ليكفلوا هذه الغاية أن يكون العلم والأدب وأن تكون الحياة العقلية والفكرية ملكاً لهم ، يقولون فيما شاءوا منها هذا حلال وهذا حرام ، وأن تكون لهم سلطة كسلطة الكهنة أيام قدماء المصريين تمكنهم من الحكم على من خالفهم بالقتل أو بالموت الأدبى . وهم بهذه الغاية يريدون أن يسبغوا على أنفسهم قداسة روحية وعقلية تلزم كل من سواهم أن يتبعهم . وهم ليسوّغوا موقفهم هذا يدّرعون بالسلف الصالح ، ويدعون أنهم وارثو تراثه ، وأنهم

باسم هذا السلف يحاربون من شاءوا حربه بأنه خارج عليه وعلى تعاليمه . ولا ريب أن فى تعاليم السلف الصالح كثيراً من الحق . ولـو أن خلفاءه هؤلاء قالوه بخير مما يقولونه اليوم لازداد جانب الحق فيه وضوحاً وجلالا . لكن أنصار القديم يريدون أن يقولوا هذه الحقائق بلغة وأسلوب فيهما من السقم شىء كثير ، وأن يضيفوا عليها ترهات وأوهاماً ، وأن يفرغوها مع ذلك فى قالب رسمى لتصبح فى حماية الدولة وليسبغ عليها القانون من القداسة ما يعاقب معه مخالفها .

أما أنصار الحديث فيريدون أن يكون التفكير حرًّا والعلم حرًّا والرأى حرًّا والتعبير عنه حرًّا ، وأن تمتد الحرية فى هذه الناحية إلى أقصى الحدود . وهم قد جعلوا سبيلهم ، أول أمرهم لتثبيت هذه الحرية ، أن ينقلوا عن الغرب وأن يترجموا علمه وأدبه وآراءه . وما دام كتاب الغرب وأدباؤه ورجاله هم أبطال هذه الحرية وحملة لوائها ، فيجب أن ينشر هذا اللواء فى الشرق كما هو منشور فى الغرب ، ويجب أن نستعير من أساليب الغرب فى الكتابة وفى التفكير ، ويجب أن نؤمن بالحقائق العلمية التى يذيعها كتاب الغرب وفلاسفته ، ويجب أن نواجه بهذه الأسلحة القوية الحادة جمود القديم حتى تحطمه ثورة الحديث عليه ، فنكون من بعد ذلك أحراراً ننعم من حريتنا فى بحبوحة السعادة العقلية والفنية ، ولا يقف هؤلاء الكهنة بمزاميرهم المملولة يفسدون علينا حياتنا . ويجب من أجل ذلك أن ننسى القديم كله ، وأن نقيم مكانه من علم الغرب وحضارته وتفكيره جديداً .

شىء من التمحيص يكشف عن أن جمود القديم كل هذا الجمود ، وثورة الحديث كل هذه الثورة ، إنما دفعت إليهما حرارة النضال ، وأنهما ما كانا يندفعان إلى الحدود التى اندفعا إليها لولا هذا النضال . وقد بينا

فى الفصل السابق أن الخصومة بين القديم والحديث كالخصومة بين الوارث والمورث غير ممكنة ؛ لأن الحديث ينطوى على شىء من القديم بل على أكثره ، والقديم لا يمكن أن يتصل بقاؤه إذا هو لم يتصل بالحديث ولم ينتشر فى أرجائه . أليس فخار الأمم بماضيها لا يقل عن فخارها بحاضرها ؟ ألسنا فى مصر نفاخر بالفراعنة وبالعصر الإسلامى أكثر مما نفاخر بالعصر الحديث ؟ فمحال إذن أن نتصور حديثاً لا يتصل بالقديم الذى أثمره ، أو نتصور قديماً لا يتطور مع الحديث وينضم إليه . فإذا اتصل القديم والحديث وتضامنا نشأت عن ذلك حيوية قوية وروح معنوية نشيطة هى التى تقوم أساساً لكل حضارة من الحضارات ، وبدونها تتداعى الحضارة وتنهار ، ويضطر أهلها إلى استعارة حضارة غيرهم والعيش فى كنفها .

بهذا الروح حاولت منذ سنين عدة أن أكشف عن بعض جوانب مصر القديمة ، وأن أسلكها سبيل الأدب القومى ، وأن أحقق بذلك بعض ما اقترحت علىَّ مس شلزك كاسلز مما أشرت إليه فى فصل الأدب القومى . وقد بدا لى فى وقت ما أن أجعل من بعض عصور مصر الإسلامية موضع هذه الدراسة ، وكانت الحروب الصليبية أشد ما استهوانى من هذه العصور . لكنى وقفت يومئذ مترددا : أفأقدم فأبحث فأوالى البحث فأقدم للجمهور ثمرة بحثى فى صورة من صور الأدب القومى ، فإذا حركة مهاجمة عنيفة تفاجئنى من غير أن تزن بالقسط ما إليه قصدت ، متأثرة فى ذلك بخصومة سياسية أو غير سياسية مما أشرت إليه حين الكلام عن فتور القصص ! من الخير إذن أن أبحث عن ميدان لا يعنى بمهاجمة الباحث فيه أحد . وهو بعد ميدان طريف يلذ بحثه ويلذ اتخاذه مادة لأدب قومى شهى الثمرة خصب غاية الخصب . وليكن هذا الميدان ميدان الفراعنة وآلهتهم . ولنطلق

لحرية الأدب غاية مداها فى تصوير حديث هؤلاء الآلهة ، مستمدين أخبارهم من مختلف مصادرها ، موازنين بينهم وبين آلهة الإغريق الذين ألهموا من فوق الأولب حضارة أوربا الحاضرة .

وقد بدأت مباحثى عن أبيس العجل الإله ونشرتها ، فلم أجد من أحد نفوراً منها أوازوراراًعنها ، مما أثبت لى أن فى النفوس إلى هذا الأدب القومى ظمأ ، وأنها صادية لورده إذا هى وجدت من يقدمه إليها . وكنت قد جعلت بحثى عن أبيس فى صورة قصة لإخوان ذهبوا إلى المتحف المصرى فوقفوا أمام تمثال أبيس ، وجعل أحدهم يقص عليهم من تاريخ عبادته ومن الأساطير الميثولوجية التى أحاطت به شيئاً غير قليل . ولأميز هذا المحدث عن بقية أصحابه دعوته نجىّ أبيس . وكان من بين هؤلاء الأصحاب شاب وخط الشيب رأسه قبل أن تؤذن السنون بهذا البياض فى الشعر ، فدعوته الأشيب وجعلت منه رجل صلاح وتقوى . وكان من بينهم شاب غير مؤمن بادئ الرأى بعبادة أبيس وأساطير الميثولوجيا المصرية القديمة ؛ فاكتفيت تمييزاً له عن إخوانه بأن أطلقت عليه اسم الشاب . وقد ظل الإخوان فى مناجاتهم لأبيس وفى مناقشة النجىّ أقواله زمناً ، ثم خرجوا فانطلقوا مارين بثكنات قصر النيل إلى فندق سميراميس ليتناولوا الشاى فيه إجابة لدعوة أحدهم الذى تسمى من بعد باسم الذى دعانا إلى الشاى . فلما آنست ظمأ النفوس إلى هذا الأدب القومى فكرت فى متابعة بحثى . وما دام القوم قد دعوا إلى الشاى فى سميراميس فليكن حديثنا بعد أبيس عن هذه الملكة الإلهة التى جلست على عرش بابل والتى غزت مصر وحكمتها زمناً . وتحدث القوم وهم فى بهو الفندق وفد جلس إلى جانبهم جماعة من السيدات والسادة المتقبعين ، من بينهم فاتنة ذات دل ساحر عبث بالأشيب أشد العبث وبدله من ورعه وتقواه جنون الهوى وفتك اللوعة ، وجعله يسائل

فى حديث القوم عن سميراميس مقدساً للجمال حيث يكـون ، سعيداً بحكم النساء الرجال ، سامياً بشأنهن إلى مـا استهوى إليه رقة الفاتنة وما جعلها ترنو إليه بنظرات معسولة زادته هوى ووجداً . وفى خلال ذلك كانت قصة سميراميس تُقِص بدقة تاريخية تزيد الفاتنة إعجاباً ودلالاً . ونشرت هذه القصة أيضاً وكنت لما أطبع كتابى « فى أوقات الفراغ » . وقد وجدت من الجهد فى كتابة هذين الفصلين بعد التدقيق فى بحثهما ما جعلنى أشك كل الشك فى وقتى أهو يسمح بمداومة البحث والكتابة وتدوين « حديث الآلهة » على ما كنت قد اعتزمت أن أسمى الكتاب الذى يجمع بين دفتيه هذه الأساطير ؟ لذلك نشرت حديث أبيس وحديث سميراميس فى كتابى « فى أوقات الفراغ » . لكن هذا البحث استهوانى من بعد ، وعاد يجذبنى إليه بقوة زادها إمعاناً تكرار زيـارتى للأقصر وأسوان ومشاهدتى مختلف آثار الفراعنـة فى وادى الملوك وفى صحارى مركز الـدر وجباله الممتدة ما بين أسوان وحلفا . وإجابة لدعوة أجدادنا وآلهتهم عدت أبحث ودونت حديث إيزيس وهاتور وأفروديت . وفى هذا الحديث يتصل البحث على لسان نجىٍّ أبيس ، والشاب ، والذى دعانا إلى الشاى ، والأشيب ، وفاتنة سميراميس ، ويتصل به حديث هوى وصبابة كنت أرجو أن يظل متصلا تباركه آلهة مصر القديمة كلها مجتمعة . لكنى عدت فوقفت من بحثى عند هذه الفصول الثلاثة التى تتصل أوثق اتصال بفصلى أبيس وسميراميس وتتابع حوادثهما . ولولا ما سبق لى من نشر هذين الفصلين لكان موضعهما ولا ريب هنا فى هذه المحاولة التى قمت بها فى سبيل الأدب القومى . أما وقد سبق نشرهما فإننى أكتفى بنشر فصول إيزيس وراعية هاتور وأفروديت هنا ، راجيـاً أن تعود إلىّ الآلهة الأقدمون تحدثنى وأحدثها وتوحى إلىَّ ما بقى من قصة الأشيب وفاتنة سميراميس . ولست كفيلا بأن تستجيب الآلهة

إلى دعائى وقد اتجه ذهنى واتجه روحى وجهة جديدة فى البحث ، وفى بحث ليس دون بحث الآلهة الأقدمين مشقة ، ولكنه أجلُّ منها مقاماً وأروع فيما ينطوى عليه من حق ونور وجلال وجمال .

وأعتقد أن الذين يعنون بمطالعة الفصول الثلاثة التى تلى هذا الفصل سيقدرون ما كان للفراعنة الأقدمين من حكمة وفلسفة قويتين عميقتين محيطتين بالحياة محبتين إياها أشد حب وأخصبه . ولعل منهم من يتابع هذا البحث الذى بدأت فى الصورة التى تلذه من صور الأدب القومى . ولعله يشعر حين يبحث وحين يدون آثار هذا البحث بما شعرت أنا به من أن تغير طرائق البحث تبعاً لما حدث فى أوربا ، واتباعاً لديكارت ومن جاء بعده من الكتاب والفلاسفة ، ليس معناه إهدار تراثنا بوصفنا مصريين وشرقيين ومسلمين ، والانتقال إلى تقليد الغرب فى أدبه القومى كتقليدنا إياه فى لباسه وفى طعامه ، كما أن ابتكار طرائق جديدة فى الزراعة ليس معناه أن أترك الأرض المملوكة لى لأذهب أجيراً عند الذى ابتكر هذه الطرق الحديثة ، ولكن معناه أن أقف أنا على هذه الطرائق وأعمل على مقتضاها فى الأرض المملوكة لى . كذلك يجب أن نستعين بطرائق الغرب فى بحث تاريخنا وإقامة أدبنا ، وفى ابتكار علم يتصل بعلمنا وصناعة وتجارة تتصل بطبيعة بلادنا . عند ذلك تبقى لنا شخصيتنا ، ولا نصبح عيالا على غيرنا ننال من فتاته وننال أضعاف ذلك من زرايته ومن احتقاره .

هذا وقد أثبتّ بعد البحوث الفرعونية الثلاثة قصتين مصريتين من واقع حياتنا الحاضرة ، نقلت حوادثهما مما شهدت دور القضاء وما قصه علىّ بعض زملائى المحامين حين كنت أشتغل بالمحاماة . وهما صورة من أدبنا القومى عن حياتنا الحاضرة . وهما من نوع الأقصوصة التى ازدهرت فى هذا الزمن الأخير . وقد نشرتا فى مجلة الهلال فى سنة ١٩٢٦ ، وإنما أذكر أن

وقائعهما نقلت إلىَّ مما شهدت دور القضاء ؛ لأن هذه الدور تشهد من المآسى الوجدانية الشىء الكثير الذى يصلح مادة للقصص ويطبعه طابع مصرى صميم ، ويجعل الأدب الذى يستلهم مادته أدباً قومياً بكل معنى القومى . وليست دور القضاء هى وحدها مسارح الوجدانيات وغير الوجدانيات مما يلهم الكاتب القصصى ويلهم الأديب أيًّا كان نوع الأدب الذى يريد أن يضع ، بل إن فى الحياة المصرية فيضاً من مصادر إلهام الأدب فى مختلف نواحيه أغزر وأخصب مما فى غيرها . والمقاصير تنطوى من ذلك على مالا يقل عما تنطوى عليه الحقول والمزارع . وما على الكاتب إلا أن يستمع ويبحث ويحلل ليجد من غزارة هذا الفيض خير مادة لما يريد من صور الأدب القومى فى الحياة الحديثة .

وها نحن أولاء الآن نعرض على القارئ محاولاتنا فى خمسة الفصول التالية ، راجين أن يجد شبابنا فيها مثلا لطليعة من طلائع الأدب القومى المصرى .

* * *